بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المسلمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فإن تربية الأولاد عمل قديم قدم وجود التناسل على ظهر البسيطة، كان يؤدى بدافع من الطبيعة، نابع من غريزة حب البقاء والمحافظة على النوع، واستجابة لعواطف الأبوة والأمومة، بالقدر الذى يؤدى إلى نماء الأولاد ووقايتهم من العوادى بالوسائل المختلفة.

ولم تكن هناك رسالة معروفة للنسل بوجه عام كما نعرفها فى هذه الأيام، فكان حسب الوالد من رعاية ولده شعوره بأنه ضعيف قضى به الاتصال الجنسى، لا يستطيع أن يستقل بنفسه، وإذا كبر جاز أن يحتاج إليه فى المساعدة على تحصيل العيش، الذى كان من البساطة بحيث لا يستلزم ما يستلزمه العيش فى البيئات المعقدة فى العصور الأخيرة، وبتقدم البشرية وإدراك قيمة الأولاد بدأ التفكير فى رعايتهم رعاية كاملة تؤهلهم لأداء دورهم فى الحياة على الوجه المطلوب.

والحديث عن رعاية الأولاد حديث قديم تعرض له الفلاسفة والمصلحون، بقدر ما عندهم من ثقافة وما يحيط بهم من ظروف، وكان الصينيون من أول من بحثوا هذا الموضوع بحثاً فلسفياً أخلاقياً منظماً، فقد ذكره «كونفشيوس» عند كلامه عن الواجبات الإلهية الخمسة، وهى الواجبات بين الملك ووزيره، وبين الوالد وولده، وبين الزوج وزوجته، وبين الأخ الأكبر وأخيه الأصغر، وبين الصديق وصديقه.

وفى اليونان أشار «أفلاطون» فى جمهوريته الفاضلة إلى تحديد النسل

لحاجة الأمة وضعف مواردها، وإلى خضوع الأطفال لتربية اجتماعية واحدة تتولاها الدولة، ما داموا موجودين فى أسرة الجندية، مبيحاً للمشرفين على نظام الحراسة أن يتولوا فى الأعياد والمناسبات صياغة عقود زواج مؤقتة بين الحراس والحارسات على شرط الكفاءة، لضمان نسل ممتاز ومحدود، وأشار بوضع الأطفال فى مكان واحد عند مرضعات فاضلات، تخفيفاً عن الحارسة لتقوم بواجب الحراسة، كما رأى منع تعرف الأمهات على أولادهن حتى لا تشغلهن العاطفة عن الواجب الوطنى. أما الثمرات الضعيفة فرأى أن يقذف بها فى مكان مجهول، وأباح إعدامها، وإن كان اليونانيون لم يقبلوا كل آرائه، فبقيت خيالات لم تحقق.

كما تحدث أرسطو عن الأولاد عند كلامه عن الأسرة، فجعل للأب سلطة على أولاده كسلطة الملكية، وقرر إعدام النسل الحاصل من الخيانة الزوجية، وأيد تحديده بالإجهاض، وإعدام المشوهين فاسدى التربية كما رأى أفلاطون. وعنى بنظام تربية الأطفال فجعل لهم مفتشين، وأوصى بعدم اختلاط الأطفال بالعبيد وقرناء السوء الذين يجب نفيهم عن البلد، وكانت دولة إسبرطة ترعى الأولاد وتشرف عليهم وهم فى حضانة أمهاتهم إلى سن السابعة، ثم تستولى عليهم.

والأديان بصفة عامة تحدثت عن الأولاد ورعايتهم ضمن حديثها عن الإصلاح الاجتماعى الذى هو رسالة الأديان جميعاً، وقد أشار القرآن الكريم إلى شىء من ذلك حين قص علينا نبأ ابنى آدم، حيث استجاب أحدهما لتوجيه والده وعصى الآخر، وابن نوح الذى عصى أمره فأغرقه الله لأنه عمل غير صالح، وحين ذكر عاداً قوم هود بأنه أمدهم بأنعام وبنين، وحين ذكر قصة إبراهيم وبشارة الملائكة له بإسحق، وما امتحنه الله به من ذبح إسماعيل، وحين تحدث عن أبناء يعقوب وحزنه على يوسف وأخيه، وحين بشر زكريا بيحيى، وبشر مريم بغلام زكى..

وكان الإسلام أدق هذه الأديان وأوفاها بحثاً عن الأولاد وعن غيرهم من كل

ما عالجه من قضايا الاجتماع البشرى، وتحدث عنهم فلاسفة الإسلام وكتَّابه وفقهاؤه، معتمدين على ما ورد فى القرآن والسنة من نصوص، وموضحين لآرائهم بما عرفوه من تجاربهم الخاصة، ومانقلوه عن ذوى الاختصاص فى هذا الموضوع.

وقد تعرض الأولاد للإهمال فى التربية فى القرون الأخيرة بشكل جعل المصلحين فى العالم يحسون خطورة هذا الإهمال، ويهتمون بوضع المناهج التربوية العلمية لرعايتهم رعاية شاملة، وذلك لإفادة المجتمع منهم ولمنعهم من الانحراف الذى تفاقم خطره فى كثير من الدول، نتيجة لعوامل سيأتى ذكرها فى الباب الخاص بالانحراف.

فى ١١ من ديسمبر سنة ١٩٤٦ اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها رقم ٥٧ بإنشاء صندوق الأمم المتحدة الدولى لإغاثة الأطفال الذين شردتهم الحرب العالمية الثانية.

وفى ديسمبر سنة ١٩٥٠ تطورت المساعدة المقدمة لهم إلى برنامج مساعدة طويل الأمد، لنفع الأطفال بشكل عام.

وفى سنة ١٩٥٣ صدر قرار بتأكيد دور هذه الهيئة، وتغير اسمها إلى «منظمة الأمم المتحدة للأطفال» الذى يرمز إليه بالحروف التى تنطق «يونيسيف» وأعمالها يسودها الطابع الخيرى القائم على التبرعات من الأفراد والحكومات، وتبلغ ميزانيتها حوالى أربعين مليوناً من الدولارات[١].

وفى ٢٠ من نوفمبر سنة ١٩٥٩ أعلنت الجمعية العامة للأمم المتحدة ميثاق حقوق الأطفال، الذى ينص علي عشرة حقوق هى: حق التمتع بالاسم، والجنسية، وحق الحماية أمام كل الظروف، وحق الحماية ضد تشغيل الطفل تحت سن معينة أو استغلاله، وحق الانتماء إلى أسرة، وحق النشوء فى جو روحى من

---

(١) الأهرام: ١٢/١٢/ ١٩٧٠.

الصداقة تجاه كل الناس، وحق الاستمتاع بالأمان الاجتماعى لينشأ وينمو فى حماه، وحق التعليم الإجبارى المجانى والثقافة لتنمية إمكاناته، وحق معاملته معاملة خاصة فى حالات النقص الخلقى والتشويه، وحق الرعاية الخاصة لينمو صحياً وروحياً ونفسياً.

وقد صدقت كل دول العالم على هذا الميثاق إلا «كمبوديا» وهذه الرعاية للأطفال من السنة الأولى إلى السنة الخامسة عشرة[١].

ومنظمة اليونيسيف أصبحت اليوم لها شبكة من المكاتب القطرية والأقليمية تخدم ١١٨ بلداً فى العالم النامى، ولها مجلس تنفيذى مكون من ٤١ عضواً يلتقون بشكل دورى مرة واحدة فى العام[٢].

والمجتمعات الإسلامية الحديثة حين قلدت غيرها من الدول فى نظام رعاية النشء وضحت فيها ظاهرتان جديرتان بالاهتمام، أولاهما أنها عنيت أكثر ما عنيت بالناحية الجسمية الظاهرية، ثم بالناحية العقلية، وذلك فى المؤسسات والمعاهد والمنظمات وكل المنشآت على المستوى الأهلى والحكومى، أما الناحية الخلقية فإنها لم تظفر بمثل هذا الاهتمام، مع أن تكوين شخصية الطفل، والإنسان عامة، يعتمد على كل المقومات الجسمية والعقلية والروحية والخلقية، والخير الذى يرجى منه لنفسه وللمجتمع عامة لابد فيه من مراعاة هذه المقومات جميعاً، والظاهرة الثانية الاعتماد على النظم والأساليب المستوردة من الخارج، والتى وضعت لبيئات ومجتمعات لها ظروفها الخاصة بها، والإمكانات التى تعتمد عليها، والأهداف التى تسعى لتحقيقها، وليس للمجتمعات الإسلامية مثل هذه الظروف، وليس عندها مثل هذه الإمكانات، وليست أهدافها مماثلة فى كل أبعادها لأهداف تلك المجتمعات،

ذلك فى الوقت الذى غنيت فيه كتبهم الإسلامية الأولى بالمبادىء والنظم

---

(١) الأهرام: ٢٠/١١/١٩٦٨.

(٢) الأهرام ١٤/١/١٩٨٧.

المتعلقة بتربية النشء تربية تؤهله لحمل رسالة الإسلام الإنسانية الشاملة، من حيث تكامل المنهج ودقته وإحكامه، لأنه وضع إلهى لا تدانيه أوضاع البشر. ومن حيث التوجيهات القوية للقائمين على شئون التربية، والضمانات الكافية لأداء واجبهم على الوجه الأكمل، وفلسفته العميقة التى توصى بوجوب العناية بهذا العمل الجليل.

لكنهم، لأمر أو لآخر، عزفوا عن هذا التراث الأصيل، وجروا خلف الغرب يستوردون من نظمه، محاولين تطبيقها بحذافيرها، على الرغم مما فيها من متناقضات ومفارقات.. وكان من أثر هذا التخبط الإخفاق الذريع فى إنشاء جيل قوى يعتمد عليه فى حمل التبعات الجسيمة. وقامت الصيحات من الغيورين تنادى بوجوب الإصلاح على أساس دراسة فاحصة تتقصى كل أسباب المشكلة، وتراعى الدقة والأمانة فى وضع الحلول لها، لتكمل شخصيتنا المستقلة، ولنستطيع الوصول إلى أهدافنا من حركاتنا الناهضة، على أن يكون ذلك على ضوء المبادىء الإسلامية.

وهذا البحث الذى أقدمه يشتمل على مقدمة وستة أبواب وخاتمة، أرجو أن يجعله الله خالصاً لوجهه، وأن يوفق العاملين فى مجال التربية للإفادة منه، مع اعترافى بأن التجارب العملية والحصيلة الطيبة التى أخذوها من مطالعاتهم ومشاهداتهم لو التقت مع الهدى الدينى وتجارب المسلمين فى عصورهم السابقة، لتكوّن من هذا المزيج خير منهج ينهض بالمجتمع الإسلامى، ليؤدى رسالته فى العصر الحديث كما أداها كاملة فى العصور الزاهرة الأولى.

والله ولى التوفيق..

القاهرة فى: شعبان ١٤٢٤ هـ
أكتوبر ٢٠٠٣ م

عطيه صقر
عضو مجمع البحوث الإسلامية ولجنة الفتوى بالأزهر الشريف

مقدمة

أولاً – الأولاد هم الثمرة البشرية التى نشأت من اجتماع الرجل والمرأة اجتماعاً جنسياً، ولفظ الأولاد جمع يطلق على الذكور والإناث، كما قال تعالى: ﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ** ﴾ [النساء: ١١] ومفرده ولد، ولفظ ولد يطلق على الفرد والجمع من الذكور والإناث، قال تعالى: ﴿ **وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ** ﴾ [النساء: ١٢] والإجماع على أن المراد به هنا ما يشمل الواحد وغيره من الذكور والإناث، صغاراً كانوا أم كباراً.

والوليد هو الصبى، وجمعه ولدان، والوليدة هي الصبية والأمة، وجمعها ولائد. ويطلق على الأولاد اسم «الذرية» قال ابن الأثير فى النهاية: الذرية اسم يجمع نسل الإنسان من ذكر وأنثى، ويجمع على ذريات وذرارى. ويطلق عليهم أيضاً اسم «النسل» يقال: تناسل القوم أى ولد بعضهم من بعض. كما يطلق عليهم اسم «النشء» جمع ناشىء، كصاحب وصَحْب، وقيل بفتح الشين كطالب وطَلَب، وراصد ورَصَد، والناشىء قيل: هو الذى فويق المحتلم، وقيل: هو الحدث الذى جاوز حد الصغر، والأنثى أيضاً يقال لها: ناشىء بغير هاء، قال ابن الأثير فى النهاية: وفى الحديث «نَشَأ يتخذون القرآن مزامير» يروى بفتح الشين جمع ناشىء كخادم وخَدَم، يريد جماعة أحداثاً، وقال أبو موسى: المحفوظ بسكون الشين، كأنه تسمية بالمصدر، لأن الفعل نشأ مصدره نشء، ومن معانيه: رَبَا وشَبَّ، يقال: نشأ فى بنى فلان، أى تربى وشب، وقال الليث: النشء أحداث الناس، يقال للواحد أيضاً هو نشء سوء، وهؤلاء نش سوء، وعلى هذا فالنشء بمعنى الذرية والنسل، وهم الأحداث فى سنيهم الأولى إلى أن يبلغوا سن العاشرة كما قيل، أو إلى ما دون البلوغ أو بعده بقليل.

والعرب تطلق أوصافاً على الإنسان بحسب سنه وأحوال نشأته، فمن ذلك قولهم: الإنسان ما دام في بطن أمه جنين، فإذا خرج فهو وليد، وما لم يستتم سبعة أيام فهو صديغ، لأنه لم يشتد صدغه، وما دام يرضع فهو رضيع، وإذا فطم عن اللبن فهو فطيم، وإذا دب ودرج فهو دارج، وإذا بلغ خمسة أشبار فهو خماسي، وإذا بلغ سبعاً وما قاربها فهو مميز، وإذا بلغ العشر فهو مترعرع وناشيء، وإذا بلغ الحلم فهو يافع، وإذا اجتمعت قوته فهو حَزوّر. والصبي في جميع ذلك غلام ما لم يخضر شاربه، فإذا اخضر شاربه وأخذ عذاره في الطلوع فهو باقل، ثم هو ما بين ذلك وبين تكامل لحيته فتى وشارخ.

ومهما يكن من شيء فإن مرادنا بالحديث عن الأولاد الحديث عنهم حتى يبلغوا ويستقلوا بأمور معاشهم، وينفصلوا عن أسرهم الأولى ليكونوا أسرًا جديدة، أو يفكروا في ذلك.

ثانياً – المراد بالرعاية. وهي مصدر رعى، يقال: رعى الأمير رعيته رعاية، وكذا رعى عليه حرمته رعاية – حفظ الأولاد من كل سوء، ووقايتهم من كل ما يضرهم في الجسم والعقل والخلق، والحفظ والوقاية يقومان على دفع الشر وجلب الخير، وعلي هذا يجب أن تكون الرعاية شاملة لكل هذه الأبعاد، ممتدة إلى آماد طويلة، تستقبل الجنين وهو في بطن أمه، بل قبل أن يكون جنيناً، عندما كان مجرد فكرة في عقل أبويه وهما يفكران في الزواج، وتلازمه تلك الرعاية حتى يكون إنساناً سوياً صالحاً ليستقل بنفسه عن والديه.

ثالثا – علاقة الإسلام بهذا البحث:

بعد أن بينا المراد بالأولاد وبالرعاية نبين هنا صلة الإسلام بهذا الموضوع. وهل من رسالة الدين أن يبحث مشاكلهم ويعالجها، أو يترك ذلك لمواضعات البشر وتجاربهم، ويعنى هو فقط بالعلاقة الروحية بين العبد وربه بالعقائد والعبادات؟

إن حديث الإسلام عن الأولاد ورعايتهم له أسباب أهمها:

١- أن الإسلام دين شملت هدايته كل قطاعات الحياة، ونظمت كل العلاقات التي يمكن أن يرتبط بها الإنسان، مع ربه باعتبار أنه خالقه ومفيض النعم عليه ومحاسبه بعد ذلك على كل ما قدم، ومع المجتمع الذى يعيش فيه باعتبار أنه جزء منه يؤثر فيه ويتأثر به، ولا يمكنه أن يستغنى عن الحياة الاجتماعية فهو مدنى بطبعه، والعلاقات الاجتماعية فروع وتقسيمات، منها العلاقة الأسرية بين الزوج وزوجه وأولاده، وبين الأخوة بعضهم مع بعض، وبين الأقارب الذين ينتمون إلى هذه الأسرة باسم الأرحام. ومنها العلاقة الاجتماعية بين الأصدقاء والجيران والشركاء والرؤساء والمرءوسين، والعاملين وأصحاب الأعمال وما شابه ذلك، ومنها العلاقة السياسية بين الحاكم والمحكوم فى الدولة الواحدة، ومنها العلاقة الدولية بين الدول بعضها مع بعض فى المجتمع الإنسانى العام.

فالإسلام نظام حدد معالم كل هذه العلاقات، وبيّن التزاماتها بما يضمن الحفاظ عليها وأداءها على الوجه الأكمل، وذلك من مظاهر الكمال فى الدين وتمام نعمة الله علي الأمة، كما قال تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينا** ﴾ [المائدة: ٣] وهو لا يكون كاملاً إذا أهمل علاقة من هذه العلاقات، والنعمة لا تتم إلا بالاطمئنان علي سلوك الإنسان بالنسبة لهؤلاء جميعاً، والله لا يرضي للدين أن يكون ناقصاً أو قاصراً عن الوفاء بحاجات البشر، قال تعالى: ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾ [النحل: ٨٩]، فكل شيء تهمنا معرفته ويتصل بنظام حياتنا المادية والأدبية، ويوفر لنا السعادة فى الدارين بينه الكتاب الكريم بطريقته التى وضحها المختصون.

ولم يعهد الناس ديناً تدخّل فى كل شيء كالإسلام، الذى نظم شئون الحياة كلها، ولم يترك دقيقة من دقائقها إلا بيّنها أو أشار إليها أو أدخلها تحت حكم عام أو قاعدة جامعة تنتظمها، كما يقول ﷺ: «وبعثت بجوامع

الكلم»[1]. ولقد عجب المشركون حين رأوا النبى ﷺ يتدخل بإرشاداته وتوجيهاته فى أخص الأمور وأخفاها، عند خلوة الإنسان بأهله، وعند اختلائه لقضاء حاجته. ورد فى صحيح مسلم عن سليمان الفارسى قال: قال لنا المشركون: إنى أرى صاحبكم يعلمكم حتى يعلمكم الخراءة. قال: أجل، إنه نهانا أن يستنجى أحدنا بيمينه أو يستقبل القبلة، ونهانا عن الروث والعظام فقال «لا يستنجى أحدكم بدون ثلاثة أحجار».

٢- أن الإسلام عرف للأسرة قدرها، وحاطها بجملة كبيرة من التشريعات لتؤدى وظيفتها على الوجه الأكمل. فالأسرة هى الخلية الأولى فى جسم المجتمع، وعناصرها هى الزوجان والأولاد، وليس المجتمع فى نظر الإسلام أفراداً متناثرين لا تربطهم روابط، بل هو جملة من المجموعات تؤلف بين كل منهم رابطة النسب، ثم تجمع بينها كلها رابطة الروح بالأخوة الدينية ثم الرابطة الإنسانية العامة.

وفى نطاق الأسرة ينشأ الجيل ويربى تحت رعاية الأبوين، لأنه لا يستطيع القدرة علي تحصيل العيش مباشرة، وفى رحاب الأسرة وعن طريقها تكون الوراثة، وفيها يتعلم السلوك واللغة، وعن طريقها أيضاً تنتقل تقاليد المجتمع إلى الطفل، وفى الأسرة تتحدد شخصية الطفل وتتكون عواطفه وتظهر اتجاهاته، وفيها تغرس الأخلاق وتنمى العادات، التى منها على الأقل شعوره بالانتماء، أى انتماء الأفراد بعضهم لبعض، والشعور بالولاء للأسرة، وبالطمأنينة لارتباط مشاعره بمشاعر أفرادها وأحاسيسهم، وفى الأسرة تتعوَّد الحياة الاقتصادية، من حسن التصرف وتقديم الأهم والاقتصاد والتوفير.

وبكل ذلك يستطيع الطفل إذا شب وكبر أن يواجه المجتمع الكبير بتبعاته والتزاماته، فقوانين الأسرة وجوّها صورة مصغرة من قوانين المجتمع وجوه، والولد إذا أحسنت تربيته فى هذا الجو، ونجح في تطبيق قوانين الأسرة كان مواطناً صالحاً،

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة.

وعضواً نافعاً فى المجموعة الإسلامية، بل فى المجموعة الإنسانية كلها. ولا يمكن لأية علاقة جنسية ينتج عنها أولاد فى غير جو الأسرة المستقرة المنظمة أن تخرج جيلاً يعتمد عليه فى رقى المجتمع.

ومن هنا حث الإسلام على تكوين الأسرة المستقرة بالزواج المنظم حسب التعاليم الدقيقة الموضوعة، ليكون هناك السكن الروحى وملء الفراغ النفسى والعاطفى بطريقة مهذبة تنتج الخير، وتبعد الإنسان عن الشر وكان ذلك من أكبر مظاهر النعم الإلهية على الإنسان، قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الروم: ٢١]. ومن زواج آدم بحواء تكونت أول أسرة فى الوجود البشرى، قال تعالى: ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** ﴾ [البقرة: ٣٥]. وقال: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ﴾ [الأعراف: ١٨٩]. وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً** ﴾ [النساء: ١]. وكانت الأسرة السعيدة من أهم الأمانى التى يطلبها الأصفياء، قال تعالى فى وصف عباد الرحمن ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ** ﴾ [الفرقان: ٧٤].

٣- أن النشء له أهميته ورسالته فى الحياة على ما سيأتى تفصيله، ولهذه الأسباب وغيرها جاء الإسلام فى ضمن تشريعاته بما ينظم رعاية الأولاد، وليوجه القائمين إلى خير الوسائل وأفضل الأساليب.

رابعاً - القواعد الأساسية لرعاية الأولاد:

العمل السليم المنتج هو الذى يسير حسب تخطيط واضح منظم، وهذا التخطيط ضوابط وإطارات وقواعد تضمن للعمل أن يسير على هدى وبصيرة، وأن يصل إلى الهدف بيسر وسهولة، وكل تصرف بدون تخطيط هو تخبط وفوضى، لا يؤمن معه العثار، ولا يطمأن لبلوغه الهدف

والإسلام حين يعالج موضوع رعاية الأولاد يعالجه علي فلسفة عميقة أصيلة، شأنه فى كل تشريعاته. وهو لهذا كان موفقاً فى علاجه للمشكلات إذا تولى تطبيقه قوم من الطراز الذى أراده الله ووضع له مواصفات خاصة. ومن الخطوط البارزة لهذا التخطيط ما يأتى:

١- معالجة الإسلام للقضايا بوجه عام هى معالجة جذرية تمتد إلى الأعماق، وتصل إلى الأسباب الأولى التى تولدت عنها هذه الظاهرة التى يراد علاجها، وإذا بدأ الإسلام رعاية الأولاد رجع بها إلى مدى بعيد سابق على وجود الناشىء فى حياته العادية، فهو لا يرعاه فقط من وقت ولادته، بل قبل أن يولد حين كان جنيناً فى بطن أمه، بل قبل أن يكون جنيناً عندما كان مجرد فكرة فى ذهن أبويه عند الإقدام علي بناء عش الزوجية كما تقدم ذكره، وإذا تم الزواج وحدث الحمل كانت له حقوقه التى سيأتى تفصيلها فيما بعد، فالإسلام يرجع بالرعاية إلى الجذور الأولى والمنابع التي تؤثر على الولد فى جسمه وعقله وروحه، أما العلاج الظاهرى أو المبتور فهو، كما يقول العرب، دهان على وبر، لم يمس أصل الداء الموجود على الجلد وما تحته. وإذا قطع جذع شجرة من الطريق لا يلبث بعد زمن أن ينمو ما دامت هناك جذور غائرة فى الأعماق تمده بأسباب النماء. وإذا كان الإسلام يتولى رعاية الناشىء قبل أن يولد فهو يلازمه بالرعاية فى كل أطوار حياته حتى يستقل أو يموت، بل كانت هناك تكاليف خاصة به بعد موته، من تجهيز للدفن وما يلزم من صبر الآباء على فقده، وهذه الرعاية كما يعبر عنها الكاتبون رعاية فى الامتداد العمودى أو الرأسى.

٢- الإسلام وهو يرعى الأولاد يرعاهم رعاية كاملة شاملة من جميع النواحى الجسمية والعقلية والروحية والخلقية، وهي رعاية كما يقولون، فى الامتداد الأفقى، تشمل كل هذه القطاعات التى يؤثر بعضها فى بعض، والتى تتكون منها جميعاً وحدة هى عبارة عن الشخصية المميزة للإنسان فى معناها الأدبى، وكل منها يضع بصمته عليها بقدر معين، مهما صغر أو ضعف فله أثره،

ونحن لا نجهل القول السائر: العقل السليم فى الجسم السليم. فصحة البدن لها أثرها فى صحة التفكير، والمرض والفقر والتواء الأفكار كل ذلك له أثره على السلوك والأخلاق، والانفعالات النفسية أو العقد والآراء المتسلطة على الإنسان لها أثرها على جسمه قوة وضعفاً ونشاطاً وخمولاً، حسب طبيعة هذه المؤثرات، وهكذا كل ما فى الإنسان من مادة وروح يؤثر عليه ويحدد له طريقته فى الحياة، ولهذا لا يكون العلاج صحيحاً إلا إذا مسَّ كل هذه النواحى، ولا تكون الرعاية منتجة إلا إذا أعطى كل جزء منها نصيبه، والمريض إذا وصف له دواء مركب من جملة أنواع لا يمكن أن يجد برد الراحة والعافية إن أهمل بعضها، زهداً فيه أو عدم حسن استعمال له على الوجه الذى بينه الطبيب. وعيب التربية البعيدة عن منهج الدين أنها تهمل النواحى الروحية والخلقية، ولا توليها من العناية بقدر ماتولى الناحية الجسمية أو العقلية، فأخرجت أبطالاً فى كمال الأجسام وحمل الأثقال والملاكمة وغيرها، ولم تخرج أبطالاً فى التضحية والبذل والفداء والإخلاص ورقابة الضمير.

ومما يدل على بُعْد النظر عند علماء التربية الإسلامية أنهم لم يهملوا التربية الجسمية فى غمرة تحمسهم للروح والخلق، بل أولَوها عناية تليق بها كما أولوا عنايتهم بالنواحى الأخرى، إيماناً منهم بشمول التشريع الإسلامى لكل نواحى الإصلاح، وبتكامله تكاملاً تاماً.

وإذا كان لبعضهم تركيز على التربية الروحية والخلقية فإن ذلك عناية منهم بالأهم، أو لأن التربية الجسمية دواعيها متوفرة، فالانسياق إليها طبعى لا يحتاج إلى كثير تنبيه، والتربية الروحية الصادقة ستؤدى فى كثير من الأحيان إلى العناية بالجسم، لأن من مبادئها إعطاء كل ذى حق حقه، كما يقول تعالى: ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾ [القصص: ٧٧]. ومن دعاء الصالحين ﴿ **رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً** ﴾ [البقرة: ٢٠١]. وقال تعالى: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ**

﴿ لا يُحبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢]. وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا ﴾ [المائدة: ٨٧]. وقال النبى - ﷺ - لعبد الله بن عمرو بن العاص، وقد أرهق نفسه بالعبادة صياماً وقياماً «صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينيك عليك حقاً، وإن لزوجتك عليك حقاً، وإن لزورك عليك حقاً»(١) والزَّور هو الزائر، مصدر وضع موضع الاسم، كصوم بمعنى صائم، وقد يكون الزور جمع زائر، مصل صَحْب وصاحب، ورَكْب وراكب. كما فى نهاية ابن الأثير. وقال - ﷺ - لمن اعتزموا صيام الدهر كله وقيام الليل كله والترهب عن النساء «أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»(٢).

أما من ينصرفون إلى تقوية أجسامهم فقط فقلَّ أن يهتموا بالروح والأخلاق. والواقع خير شاهد على ذلك. فالرعاية الصحيحة هى الشاملة الكاملة التى لا تعنى بناحية على حساب ناحية أخرى، وهذه هى رعاية الإسلام.

٣- الإسلام يوزع مسئولية الإصلاح على المجتمع كله، لا يقصرها على فرد معين، ولا على جماعة خاصة، وهذا نتيجة للمبدأ السابق فى شمول الرعاية، فإن تربية الناشىء تربية شاملة لكل النواحى، مهمة ضخمة وعبء ثقيل لابد فيه من تعاون الجميع، كل فى دائرة اختصاصه. وبالقدر الذى يستطيعه، لابد فيها من تعاون المنزل والمدرسة والمجتمع كله، والأداة الحكومية بكل قطاعاتها التشريعية والتنفيذية والقضائية، وبجميع مرافقها واختصاصاتها، وكل جهة تكمل نقص الأخرى، وتتعاون معها فى اتجاه واحد نحو هدف واحد، لا يقصر طرف من الأطراف، ولا يسير أحدها فى اتجاه معارض، أو يهدف إلى غير ما يهدف إليه الآخر.

والأولاد هم لبنات المجتمع كله، وخيرهم وشرهم يعود عليه، لا يقتصر على

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أنس.

الفرد وحده، ولا على أسرة واحدة ولا بلد واحد أو هيئة ينتمى إليها، وفي مجال التعاون على الخير بوجه عام، ومنه رعاية الأولاد، يقول الله تعالى ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ [المائدة : ٢]. ويقول ﴿ **وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ وفى الحديث الشريف « والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه »(١). وفيه أيضاً « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »(٢). وفيه أيضاً « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده. فإن لم يستطيع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان »(٣). وفيه أيضاً « من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم »(٤). ويضرب النبى – ﷺ – مثلاً رائعاً للتضامن والتعاون على الخير وأثره على الفرد والجماعة فيقول « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فلو تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً »(٥).

٤ – تمتاز التربية الدينية عن التربية الأخرى بأنها تهيىء لسعادة الدنيا والآخرة معاً، وتشعر بأن الآخرة خير من الأولى، فإذا عرف الناشىء أن هناك يوما لا يجزى فيه والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا وأن الجزاء الموعود به فوق ما يتصور من جزاء الدنيا فى جانبى الثواب والعقاب، وإذا علم أنه لا يستطيع أن يفر من الموقف أو يفلت من المحاكمة أو يدلس ويخدع ويَغُشّ – وضع كل ذلك فى الاعتبار، فأتقن عمله وراقب ربه أملاً فى الثواب الجزيل وخوفاً من

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة.
(٢) رواه البخارى ومسلم عن أبى موسى.
(٣) رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى.
(٤) رواه الطبرانى عن حذيفة بن اليمان – الترغيب جـ ٢ ص ٢٢٧.
(٥) رواه البخارى عن النعمان بن بشير.

العقاب الشديد، وإذا علم أن ما كان ينتظره من تقدير دنيوى إن ضاع عند الناس فإنه لا يضيع عند الله – هدأت نفسه وانشرح صدره، وأقبل على عمله فى رضا وإخلاص، لا يفكر فى انتقام ولا يسعى فى فساد، وهذا كله له قيمته العظيمة في حسن سير الأمور، واستقرار الأحوال، وتجنب الأزمات النفسية والآراء المنحرفة والفتن والإضطرابات.

ومن هنا يظهر الفرق واضحاً بين من يتربون على مبادىء وقيم يفرضها القانون أو يقضى بها العرف، وبين من يؤخذون بقيم الدين وآداب العقيدة، إن الأولين يؤدون واجبهم فى أدنى صوره، لا يرجون إلا رضاء دنيوياً وخيراً عاجلاً، والآخرون يؤدونه فى أكمل صوره بقدر المستطاع، انتظاراً لثواب من لا يضيع أجر من أحسن عملاً، فالرقيب موجود معه بكل حال، والتقدير العادل مضمون يوم الجزاء، وهو عندهم خير وأبقى مما يتعجله غيرهم في هذه الحياة ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [النحل: ٣٠]. ﴿ **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا** ﴾ [النساء: ٧٧].

إن الطفل إذا تربى على العقيدة الدينية التى تشعره بالبعث والجزاء أقبل على طاعة الله وأداء العبادات أملاً فى الثواب، وليس كذلك من يتربون على مبادىء لم تنبع من الدين، حيث لا تكون للعبادة أهمية فى نظرهم، والعبادة بدورها تعطى الإنسان رصيداً ضخماً من القيم الأدبية العالية، نَفْسٌ مهذبة، وروح مشرقة، وخلق فاضل، وفكر سليم، وهذه كلها لها آثارها القوية في السلوك الشخصى والاجتماعي. إلي جانب رجاء الثواب عليها، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وقال: ﴿ **لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ** ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وقال ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا** ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. وقال النبى – ﷺ –: « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه »(١).

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة.

د – الإسلام في كل تشريعاته يدعو إلى الكمال، ولا يرضى بالدون من الأوضاع ما دام الكمال مستطاعاً، فقد دعا إلى الأخذ بالأحسن من كل شيء قولاً وعملاً وشعوراً وفكراً، قال تعالى: ﴿ **فبشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه** ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]. وقال: ﴿ **ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن** ﴾ [فصلت: ٣٤]. وقال: ﴿ **وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن** ﴾ [الإسراء: ٥٣]. بل طلب النبي – ﷺ – من المؤمنين أن يطلبوا من الله في دعائهم أعلى منزلة من الجنة فقال: «إذا سألتم الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى، فإن الله لا يتعاظمه شيء» رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، كل روى بعضه(١). وفي الحديث «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»(٢).

وفي مجال التربية على ضوء هذا لا يريد الإسلام نسلاً هزيلاً كغثاء السيل، في قلبه وهن يحب به الدنيا ويكره الموت والتضحية، إنه يريده قوياً في جسمه وعقله وروحه وخلقه، وهو في سبيل ذلك لا يقف دون الجد والنشاط والعمل والتطور والارتقاء وطلب الكمال المادي والأدبي، ومثل هذا النشء يحقق لمجتمعه السعادة، ويفيد نفسه والإنسانية فائدة عظيمة.

٦– الإسلام حين يضع مناهج الإصلاح لا يضعها لفترة معينة من الزمن، أو جيل خاص من البشرية، فإن رسالته خالدة ممتدة تصلح لكل عصر وجيل، وهو بهذا لا يضع منهج التربية على شكل تشريعات جزئية أو أحكام وقتية، يصعب تطبيقها في بيئة أخرى غير مماثلة، أو عصر غير مشابه، بل يضعها قواعد كلية مرنة يمكن تطبيقها في كل البيئات وفي جميع العصور، تاركاً تفريعات القواعد واستخراج الجزئيات لمقتضيات الظروف وحكم المناسبات، وبهذا لا يقال: إن منهج الإسلام في تربية الأولاد كان لقرون مضت، وأجيال صحراوية بدأ فيها دعوته، فإن مبادئه وآدابه العامة تناسب أرقى البيئات، وتتمشى مع أحدث

(١) الأحياء جـ٤ ص١٣٣.
(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة.

النظريات الصحيحة. وتساير كل مظاهر الحضارة فى صورتها النقية الصادقة، وقد شهد بذلك المنصفون من الأعداء والأصدقاء على السواء.

ونحن بهذا المنهج المرن المحكم فى غنى عن استيراد مناهج وضعها بعض الناس لبيئاتهم، ولتحقيق أغراض خاصة بهم، لا تتناسب وبيئاتنا الإسلامية وأهدافنا السامية، وفى غنى أيضاً عن التغيير والتبديل فى المناهج والأساليب كلما لاح جديد من الغرب فى أفق التربية والتعليم، الأمر الذى يبلبل الأفكار، ويكثر من وجود الثغرات، ويباعد بين الأجيال فى الأفكار، ويضعف ثقتنا بما نشرع ونجتهد فى تطبيقه والدعاية له. والجيل المهزوز المضطرب الذى يُعَدُّ حقل تجارب يلبس ثوباً ويخلع آخر، أو يضطر إلى لبس ثوب مرقع من كل بيئة لا يوائم جسمه ولا يريح نفسه – يعيش على أعصابه مثقل الظهر فى حاضره، مزعزع الثقة فى مستقبله، والجيل الذى يقطع الصلة بينه وبين أسلافه، ويتنكّر لتراث الأقدمين ومناهجهم يعيش على غير أساس يعتمد عليه، أو يعتز به كما يعتز كل إنسان بنسبه، ويزيد اعتزازاً به كلما أوغل فى القدم وامتد أجيالاً طوالاً، فذلك عنوان أصالته.

هذه هى أهم الأسس التى وضع الإسلام عليها منهجه فى رعاية الأولاد[1].

* * *

(١) راجع بحث «منهج الإسلام فى علاج المشاكل الاجتماعية» فى كتابنا «توجيهات دينية واجتماعية».